وطنية البارودى بين حياته وشعره

د. هاشم عبد الرحيم هاشم

الحديث عن الوطن يمثل جزءا من تراث الانسانية الخالدة ومأثورها الصادق ، تتواصل الأجيال والحديث عن الوطن لا ينقطع والشعراء هم من أرهف الناس حسا ، ومن أقدر الناس على ترجمة مشاعرهم وتصوير عواطفهم وأحاسيسهم ، بما أفاء الله عليهم من ملكة البيان ، فكم من الشعراء تحدثوا فى صدق واخلاص عن أوطانهم ، وكم من القصائد نظمت فى الوطن تغنيا بفضائله،وتمجيدا لمآثره ، واستنهاضا لهمم أبنائه نهوضا به وذودا عن حياضه وكرامته .

صحيح أن الحديث عن الوطن قد يتفاوت من شاعر الى آخر كما أنه قد يختلف من زمان الى آخر كذلك ، فدرجة الانتماء فى نفس الشاعر تتحكم فى نتاجه ، ونتاجه يرسم منزلة الوطن فى نفسه ، وعلى ضوء هذا النتاج يكون الحكم ، فالشعر هو الشعور كما قيل .

كما أن الوطن نفسه تعتوره حالات وحالات ، وهذه الأحوال تتحكم بالطبع فى نتاج الشعراء فالشاعر هو ابن بيئته ، والشعر هو مرآة العصر .

لذا فعند الحديث عن وطنية البارودى وأثرها فى شعره ، لابد من التعرض لحياته وما كان فيها من أحداث كان لها بالغ الأثر فى الوطن والمواطن .

عاش الشاعر حياته ، التى زادت عن الستين عاما والوطن يعانى مستعمرا دخيلا وحاكما مستبدا ، فقد ولد الشاعر فى عهد الخديوى

عباس الأول حيث ولد فى السابع والعشرين من شهر رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وألف من الهجـرة الموافق السابع من شهر أكتـوبر سنة ألف وثمانمائة وتسع وثلاثين من الميلاد •

وكان أبوه ويدعى حسن حسنى ضابطا فى الجيش المصرى ، ومازال يترقى حتى أصـبح من أمراء المدفعية ثم عـين مدير المديرية ونقلـه بالسـودان •

مات هذا الرجل وكان ابنه محمود سـامى طفلا لم يكد يتجـاوز السابعة من عمره ، فقامت الأم بكفالة ابنها وكانت جركسية ، ولكنهـا على الرغم من عدم عروبتها الأصيلة فانها غرست فى نفس وليدها حب العربية لغة القـرآن الكريم ، كما أنهـا غرست فيه كذلك حب العرب والمسلمين •

يعد محمـود سامى البارودى سـليل أسرة جركسية تنتمى الى المماليك الذين حكموا مصر حقبة من الزمن ، كان أحد أجداده ملتزما فى العصر العثمانى لبلده ايتاى البارود ، احـدى مدن محافظة البحـيرة بالوجـه البحـرى لجمهورية مصر العربيـة ، التى نسب اليهـا فلقب بالبارودى •

عهدت به أمه منذ نعومة أظفاره بمن يحفظه القرآن الكريم ويعلمـه الفقه والتاريخ الاسلاميين ويلقنـه مبادىء اللغة العربيـة وقواعدها نطقا وكتابة •

لذا فقد عشق اللغة العربية وأدبهـا فأكب على دواوين شـعراء العرب الأول يغذى موهبته ويشبع نهم نفس استهوتها أشعار الحماسة بخاصة فأقبل يعب منها نهلا وعللا ، يردد أبياتهـا ويتغنى بفرائدها ، وتذوب نفسه فيها لذا تخرج هذه الأبيات من أعماق نفسـه (محسا أن

كل بيت فيها ، بل كل كلمة فكل حرف ينفصل من ذات نفسه ، ويصدر من صميم قلبه)(١) .

فقد رأى البارودى فى هذا الشعر ما يرضى طموحه ، وعثر فيه على ضالته المنشودة ، ومزج بينه وبين نفسه فكان كلاهما مرآة للآخر وصورة منه ، شعر الحماسة وحماسة الشاعر .

ولعل حماسة البارودى هى التى دفعته الى اختيار حياة الجندية خلفا لأبيه وتحقيقا لرغبة تستكن فى النفس ، ومن ثم فقد دخل المدرسة الحربية وتخرج منها فى أول عهد سعيد ١٨٥٤م ، فمضى فى هذه السبيل التى شب شغوفا بها ، ولم يلبث حتى وصل الى رتبة مقدم وأسندت اليه قيادة فرقتين من فرق الفرسان ، ثم رقى الى رتبة عقيد ثم الى رتبة عميد فوكلت اليه قيادة الفيلق الرابع من جنود الحرس الخاص .

وهكذا هيأت الأقدار للبارودى أمر القيادة والريادة ، كما هيأته لهما ، ومهمة القيادة لا يكلف بها الا الأفذاذ من الرجال ممن حباهم الله من الصفات بما يجعلهم أهلا لها كقوة الشخصية وذكاء القريحة ورباطة الجأش وجرأة النفس ، وهذه الصفات ضرورية بخاصة فى مجال العسكرية .

وعندما نزن البارودى لنرى مدى نصيبه من سمات الحماسة نجد أن (البارودى يعد مثلا رفيعا للفارس العربى ، بل لكأنما وجد ليجسد تجسيدا فروسية العرب على مر الزمن من العصر الجاهلى الى عصر حرب الصليبيين والتتار)(٢) .

كما أننا عندما ننظر الى فروسية البارودى نجد أنهما ظهرتا بوضوح فى وطنيته فوطنيته صورة لحماسته ، وحماسته امتداد لحماسة

---

(١) البارودى رائد الشعر الحديث د. ضيف ط رابعة ص ٤٩ .
(٢،٣) البارودى رائد لشعر د. ضيف ط رابعة ص ٥٤ .

سلفه المسلمين ، الذين قرأ تاريخهم وانفعل بمواقفهم ، وانبهر بشجاعتهم وفروسيتهم ، لذا فان نفس البارودى لم (تتمثل معارك الحرب وصليل السيوف والرماح وصور الطعن والنزال فحسب ، بل تمثلت فى قوة شيم فرسان العرب النبيلة التى طالما تغنوا بها ، من مثل الأنفة والاباء ، والنجدة والوفاء ، والشجاعة والمضاء والكرم والحلم ، والعفو عند المقدرة ، وبعد الهمة وتوثب العزمة والترفع عن الدنايا ، والطموح الى الكمال ، ولا يتمثل البارودى خلال الفارس العربى الكريمة فحسب ، بل انه يتمثل شخصيته من جميع أقطارها)(٣) فهو مثل حى لذلك الفارس من كل وجوه ، ولولا وطنيته لما تعلق بهؤلاء وما كان ممن تمثل صفاتهم ، وحفظ شعرهم ، ونشأ محبا لكل خلالهم ، على الرغم من الظروف القاسية التى تعرض لها العرب وتراثهم ، وبخاصة فى عهد عباس الأول ، حتى قال الشيخ المهدى مصورا تلك المحنة حيث (كانت اللغة العربية مضطهدة فى عهد عباس الأول ، الى حد أن من تكلم بها من طلبة المدارس الحربية توضع فى فيه العقلة ، التى توضع فى فم الحمار حينما يقص ، ويبقى كذلك نهارا كاملا ، عقوبة له على تحريك لسانه بلغة القرآن)(٤) .

ولكن على الرغم من كل هذا لم يكف البارودى عن قراءته فى ديوان الشعر العربى ، ولم يحل كل هذا بينه وبين اللغة العربية التى شغف بها حبا منذ نعومة أظفاره .

هذا الاصرار من ناحية البارودى يظهر بوضوح قوة عزيمته وصلابة نفسه ، فالقدر قد حباه نفسا عظيمة متقدة وطموحا لا يقف عند حد ، نماهما عمله فى الجندية والفروسية .

من شعر له فى صباه متحدثا عن نفسه :

---

(٤) البارودى رائد الشعر الحديث د. ضيف ط رابعة ص ٤٨ .

هو ما قلت فاحذرنهـا صـباحا
غـــارة تمـلأ الفضـاء رماحـا
لا ترى بينهـا ســـوى عبقرى
يألف الطعن نجـــدة وارتيـاحا
لهج بالحـــروب لا يألف الخفض
ولا يصحب الفتـــاة الرواحا
مســـعر للوعى أخـــو غـدوات
تجعل الأرض أتمـا وصـياحا
لا يرى عاتبا عـلىَ شـيم الدهـر
ولا عابثـــا ولا مزاحـــا
يفعـل الفعـلة التى تبهر النا
س وترنو لها العيون طمـاحا(٥)

وفى أبيات أخرى يفخر بشيمه العربية وسجاياه الأصيلة فيقول :

وحســـبك منـا شـيمة عربيـة
هى الخمر ما لم يأت من دونها حرد
وبى ظمـأ لم يبلـغ المـــاء ريه
وفى النفس أمر ليس يدركه الجهد
وما بى من فقر لدنيـا ، وانمـا
طلاب العلا مجد ، وان كان لى مجد
انا المرء لا يطغيـــه عـــز لثروة
أصـاب ، ولا يلوى بأخلاقه الكد
أصـد عن الموفور يدركه الخنا
وأقنـــع باليســور يعقبه الحمـد

---

(٥) الديوان جـ ١ ص ١٧٥ : ١٧٦ .

ومن كان ذا نفس كنفسى لصدعت
لعزته الدنيـــا ، وذلت له الأســـد
ومن شـــيمى حب الوفـــاء ســـجية
وما خير قلب لا يدوم له عهـــد(٦)

فنفسه نفس كبيرة وهمته همة عالية وأمله واسع عريض ، ويقـــول فى موقف آخر :

ســـواى بتحنـــان الأغاريد يطرب
وغـــيرى باللذات يلهـــو ويلعب
ومـــا أنا ممن تأسر الخمـــر لبـــه
ويملك ســـمعيه اليـــراع المثقب
ولكن أخـــوهم اذا ما ترجحت
به ســـورة نحو العلا راح يدأب
نفى النوم عن عينيـــه نفس أبيـــة
لهـــا بين أظرف الأســـنة مطلب
بعيـــد مناط الهم فالغـــرب مشرق
اذا ما رمى عينيـــه والشرق مغرب
له غـــدوات يتبـــع الوحش ظلها
وتغـــدو على آثارها الطـــير تنغب
همـــامة نفس أصـــغرت كل مأرب
ومكنت الأيـــام ما ليس يوهـــب
ومن تكن العليـــاء همـــة نفســـه
فـــكل الذى يلقـــاه فيهـــا محبب
خلقت عيوفا لا أرى لابن حـــرة
لدى يدا أغضى لهـــا حين يغضب

---

(٦) الديوان جـ ص٢١٢ : ٢١٣ .

أسـير على نهج يرى النـاس غيره
لكل امرىء فيما يحاول مذهب(٧)

هذه هى نفسـه ، وذلك نهجـه ، ولذا (مضى يناضـل بمقدار ما يستطيع ، وكأنه كان فوق كل جبـروت أو كأنما كان يحمل من قـوة النفس ما تنوء به العصبة أولو القوة ، وفى أشد الساعات ضـيقا وبرما كانت تضىء له هذه النفس جوانب المسـتقبل ، منحية عنه كل يأس ، باعثة فيه كل مضاء وعزم .

حقا انها نفس كبـيرة (... نفس ثائرة خلقت لتثور فى سـبيل حريتها وكرامة أمتها)(٨) .

لذا نجد أن صاحب النفس الكبيرة يتعرض لأزمة نفسية قاسـية وهو فى التاسعة والعشرين من عمـره سنة ١٨٦٨م ، وأغلب الظن أن سبب هذه الأزمة يرجع الى حال الوطن ، وما كان يمر به من فساد ، وما نكب به بين حكام مستبدين ، باعوا البلاد وتسلطوا على العبـاد ، حيث كان يحكم مصر فى هذا العهد أسرة تركية جعلت حكم البلاد ملكا عضوضا ، يتوارثه الأبناء عن الآباء .

ومما يرجح هذا الظن أن البارودى شـغل منصب ياورا للخديوى اسماعيل ، هذا الذى باع أسهم قناة السويس ، وبذر ثروات البلد على شهواته وملذاته ، ولا شك أن البارودى رأى كل هذا السرف والسـفه بعينى رأسه ، حيث كان ياورانا ، مما أقلق ضميره وأقض مضجعه ، اذ ما يحدث من الخديوى وخاصـته يحرك بل يفزع أقل الناس وطنيـة ، بل أكثرهم كالبارودى مثلا .

---

(٧) الديوان جـ ١ ص ٨٩ : ٩١ .
(٨) البارودى رائد الشعر الحديث د. ضيف ط رابعة ص ١٠٤ .

وقد أنطقت هذه الحال لسان البارودى فقال :

وما مصر عمر الدهـر الا غنيمة
لمن حـل مغنـاها ونهب مقسـم
تداولهـا الملاك من كل أمـة
ونال بهـا حظا فصـيح وأعجـم
فما أهلهـا الا عبيـد لمن سـطا
ولا ريعها الا لمن شاء مغنم (٩)

فمصر طيلة عمرها غنيمة ، بل هى نهب مقسم لكل من أراد ، فريعها لهم مغنم وأهلها لهم عبيد ومن كان هذا وسمه لهو شر البلاد وأشـقى الشعوب .

بئس المعشير وبئست مصر من بلد
أضحت مناخا لأهل الزور والخطل
أرض تأثل فيها الظـلم واتقذقت
صـواعق الفتن بين السهل والجبل
وأصـبح الناس فى عميـاء مظلمة
لم يخط فيها أمرؤ الا على زلل (١٠)

فهذه الأبيات وان كان ظاهرها ذما وهجوا لمصر ، فجوهرها ليس كذلك فهو يحبها حبا عميقا وهو يعانى بسببها ما يعانى ، ولكنه أراد أن يصورها وقد أصيبت فى كبريائها وعزتها وفى حكمها وسياستها ، وبهذا صارت مناخا لأهل الزور والبهتان ، ومرتعا للظلم والغـدر والطغيان وعمها ظلام ليل طويل ، وشملها والفساد ، ولذا قال معرضا بالظـلم والظالمين :

---

(٩) الديوان جـ ٣ ص ٥٦٢ .
(١٠) الديوان جـ ٣ ص ١٨ .

أبى الدهر الا أن يسـود وضيعه
ويملك أعناق المطـالب وغـده
فختـام تسرى فى دياجير محنـة
يضيعه بها عن صحبة السيف غمده
اذا المرء لم يدفع يد الجور ان سطت
عليه فلا يأسف اذا ضـاع مجده
ومن ذل خوف الموت كانت حياته
أضر عليـه من حمـام يـؤده
وأقتـل داء رؤيـة العين ظالمـا
يسىء ويتلى فى المحافل حمده
علام يعيش المرء فى الدهر خاملا
أيفـرح فى الدنيـا بيوم بعـده
عفاء على الدنيا اذا المرء لم يعش
بها بطلا يحمى الحقيقة شده (١١)

كذلك فى قصيدة أخرى ذم سيرة الحكام وفساد الخديوى اسماعيل وحاشيته فقال :

حلبت أشطر هذا الدهر تجـربة
وذقت ما فيه من صاب ومن عسل
فما وجدت على الأيام باقيـة
أشهى الى النفس من حرية العمل
لكننـا غـرض للشر فى زمن
أهـل العقول به فى طاعة الخمـل
قامت به من رجال السوء طائفـة
أدهى على النفس من بؤس على ثكل

(١١) الديوان جـ ١ ص ١٩٣ .

من كل وغد يكاد الدست يدفعه
بغضا ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت
قواعد الملك حتى ظل فى خلل
وأصبحت دولة الفسطاط خاضعة
بعد الاباء وكانت زهرة الدول (١٢)

هذا الشعر الذى يصور مدى فساد الخديوى اسماعيل وحاشيته ، وكيف أصبح أولو الألباب فى طاعة الطائشين ، كما أنهم أصبحوا غرضا للشر وهدفا للسوء يرميهم أولئكم بما شاءوا من تهم وجرائم ، لا شك انها نكبة عظيمة منيت بها دولة الفسطاط حاضرة العالم العربى والاسلامى • كل هذا على الرغم من أن البارودى عمل يلورا لهذا الخديوى مدة ثم جعله كبيرا لياوران ابنه توفيق ثم اختاره اسماعيل سكرتيرا خاصا له وذلك بعد عودته من حرب كريت سنة ١٨٦٧ ، ولبث يعمل فى البلاط الملكى نحوا من ثمانى سنوات منذ أن كان فى الثامنة والعشرين ، وحتى بلغ ستا وثلاثين •

والملاحظة الجديرة بالاهتمام هى أن البارودى ظل طوال الفترة التى عمل فيها بالقصر محتفظا بكرامته ، معتزا بنفسه ، فلم نجد فى شعره ما يدل على أنه سخره لخدمة الخديوى والاشادة به ان صدقا وان كذبا ، بل كان على عكس ذلك تماما ، فهذا هجاؤه فى الخديوى اسماعيل وحاشيته يشهد له بوطنيته واخلاصه فيها ، ويدل على مدى ما يتمتع به من اباء وشمم ، ومن اليسير جدا على البارودى أن يكون شاعر القصر ، كما هو سكرتير الملك ، ولكن وطنيته تأبى عليه الا أن يكون شاعر الوطن • كما أنه ذم رجال الحكومة الاستبدادية فى عهده وصورهم فى أقبح صورة وفضح مسلكهم فقال :

---

(١٢) الديوان جـ ٤ ص ١٥ : ١٧ •

واحذر الناس ما استطعت فان الذ
ـاس أحلاس خدعة وتعـادى

رب خـل تـراه طـلق المحيـا
وهـو جهم الضـمير بالأحقـاد

وأنـاس صـحبت منهـم ذئابـا
تحـت أثـواب ألفـة ووداد

كيف تبيض مـن أناس وجـوه
صـبغ اللؤم عرضـهم بسـواد

أظهـروا زخرف الخـداع وأخفوا
ذات نفس كالجمـر تحت الرمـاد

فترى المـرء منهم ضـاحك السن
وفى ثوبـه دمـاء العبـاد

معشر لا وليد هم طاهر المهـدى
ولا كهلهـم عفيف الوسـاد

حكموا مصر وهى حاضرة الدنيـا
فأمست وقـد خلت فى البـوادى

أصـبحت منـزل الشـقاء وكانت
جنـة ليس مثلها فى البـلاد (١٣)

كذا ذم الخديوى توفيق وسـياسته الخرقاء وهجاه هجاء مقذعا فقـال :

عـدادك فى سـلك البـرية خزية
ودعـواك حق الملك أدهى وأعظم

لقد هانت الدنيا على الناس عندما
رأوك بهـا فى ملك يوسف تحـكم

---

(١٣) الديوان جـ ١ ص ٢٣٣ : ٢٣٥ .

فان تك أولتك المقـادير حكمهـا
فقـد حازها من قبل عبـد مزنم
وشـــتان عبـد بالمحجـة ناطق
وحـر اذا ناقشـته القـول أغتم
وهـذا أذل الملك وهـو معـزز
وذاك أعز الملك وهـو مهضـم
فمن شك فى حكم القضاء فهـذه
جلية ما شاء القضاء المحتم (١٤)

انه أقذع هجاء وأمره ، وكيف يضرب له المثل بولاية كافور العبد الأخشيدى على مصر مع الفارق الكبير فكافور أعز الملك وهو مهضـوم ذليل ، وذاك أى توفيق أذل الملك وهو عزيز منيع •

انها ثورة عارمة وصرخات مدوية زلزلت عروش الخونة المستبدين ، والحكام الفاسدين المفسدين ، ومن ثم يتوعد ويهدد بأنه سوف يشعلها نارا عليهم ، مؤكدا وعيده بالقسم فيقول :

تالله أهـدأ أو تقـوم قيـامة
فيهـا الدماء عـلى الدماء تـراق
أنا لا أقر عـلى القبيـح مهـابة
ان القـرار على القبيـح نفـاق
قلبـى على ثقـة ونفس حـرة
تأبى الدنى وصـارمى ذلاق
وعلام يخشى المـرء فرقة روحـه
أو ليس عاقبة الحياة فراق (١٥)

---

(١٤) الديوان جـ ٣ ص ٥٦٣ : ٥٦٥ •
(١٥) الديوان جـ ٢ ص ٣٠٥ •

وهكذا خلع البارودى العـــذار ، وبدأ يجهر بدعوته الى الثورة ، استجابة لمـــا يحمل من نفس متقدة ، غير عابىء بما سيكون ولو كان الموت فى سبيل الحرية والكرامة ، فهو يأبى الضيم ولا يقر على القبيح •

والبارودى كشاعر كان يؤمن بأن للشعر مهمة سامية ، كما أن له تأثيره العظيم فى النفوس حيث ان الشعر (لمعة خيالية يتألق وميضها فى سماوة الفكر فتنبعث أشعتها الى صحيفة القلب فيفيض بلألائها نورا يتصل خيطه بأسلة اللســـان ينفث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ويهتدى بدليلها السالك ـــ فمن آتاه الله منه حظا ، وكان كريم الشـــمائل طاهر النفس فقد ملك أعنة القلوب ، ونال مودة النفوس ـــ ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم الا تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهـــام وتنبيه الخـــواطر الى مكارم الأخلاق ، لكان قد بلغ الغـــاية التى ليس وراءها لذى رغبة مسرح ، وارتبأ الصهوة التى ليس دونها لذى همة مطمح) (١٦) •

لذا فمنذ أن تفجرت شاعريته وهو يجول ويصول ، متخذا من شعره سلاحا يسلطه على من هو أهل للحرب والنزال ، كما جعله منبرا يرسل من فوقه دعواته للاصلاح والتوجيه واستنهاض الهمم واثارة الحماس واشعال جذوة الوطنية فى النفوس •

هكذا مضى يناضل بمقدار ما يستطيع ، ولم (تلبث ربة الشعر أن حلت عقال لسانه فمضى يشدو بأنغام تفيض قوة وحماسا ، وطموحا الى المجد لا حد له ، وكأنه يريد أن يحقق ما تعنو له الوجوه ، بل ما تنقطع دونه الرقاب) (١٧) •

ومن ثم نجد وطنيات البارودى تقوم على هذا الأساس ، وعلى هذا النحو (كان يمسك باحدى يديه ثيثارته ، ويمســـك باليد الأخرى

---

(١٦) ديوان البارودى جـ ١ ص ٥٥ : ٥٦ •

(١٧) البارودى رائد الشعر الحديث د• ضيف ط رابعة ص ٥٠•

سيفه ، مما جعل شاعريته تنبعث فى صدره بعثا قويا ، بعثا أضرم جذوة الحماسة فى نفسه اضراما ، فاذا هى تشتعل اشتعالا ، واذا هو يرسل أناشيد حماسية ملتهبة) (١٨) ، ولا عجب أن عرف البارودى برب السيف والقلم وهذا اللقب ربما كان مبعثه بيت الشعر الذى يقول فيه عن نفسه •

تأبى لى الضيم نفس حرة وبيد
أطاعها المرهفان السيف والقلم

بل ربما كان أثر القول البليغ فى نفوس الناس يفوق أثر السيف ، ولذا قيل رب قول أنفذ من صول • على أية حال صال البارودى بشعره وجال فنراه تارة يقتحم به ميدان الهجاء ، ويسلطه على كل من تجرد من الوطنية ، أيا كان وضعه ، وأيا كانت النتائج ، وقد مرت بنا نماذج من أهاجيه فى حكام مصر اسماعيل وتوفيق ومن شايعهم •

وتارة يجعل منه منارة تضىء لابناء الوطن سبيلهم نحو التقدم والرقى ، فمن شعر له وهو فى صباه يقول :

بقوة العلم تقوى شوكة الأمم
فالحكم فى الدهر منسوب الى القلم
كم بين ما تلفظ الأسياف من علق
وبين ما تنفث الأقلام من حكم
لو أنصف الناس كان الفضل بينهم
بقطرة من مداد لا يسفك دم
فاعكف على العلم تبلغ شأو منزلة
فى الفضل محفوفة بالعز والكرم

---

(١٨) البارودى د• ضيف ط رابعة ص ٥٤ •

فليس يجنى ثمـــار الفوز يانعـــة
من جنة العـــلم الا صـــادق الهمم
لو لم يكن فى المساعى ما يبين به
سبق الرجال تساوى الناس فى القيم
فاستيقظوا يا بنى الأوطان وانتصبوا
للعـــلم فهو مدار العدل فى الأمم
ولا تظـــنوا نماء المـــال وانتسبوا
فالعلم أفضل ما يحويه ذو نســـم
فرب ذى ثروة بالجهـــل محتقـــر
ورب ذى خـــلة بالعـــلم محتـــرم
شيدوا المدارس فهى الفرس ان بسقت
أفنانه أثمرت غصنا من النعم (١٩)

فهذه الأبيات تحض بنى الأوطان على طلب العلم ، لما فيه من أسباب التقدم والازدهار • كما أن البارودى أخذ يدعو قومه الى الثورة على الخديوى اسماعيل وحاشيته ، يستنهض هممهم ويبعث جذوة الحماسة فى نفوسهم ، فقال وهو ابن التاسعة والعشرين سنة ١٨٦٨م قصيدة عينية منها :

فيا قوم هبوا انما العمر فرصـــة
وفى الدهـــر طرق جمـــة ومنـــافع
أصـــبرا على مس الهـــوان وأنتم
عديد الحصى انى الى الله راجـــع
وكيف ترون الـــذل دار اقـــامة
وذاك فضل الله فى الأرض واسع

---

(١٩) الديوان جـ ٣ ص ٢٧٠ •

أرى أرؤسا قد أينعت لحصادها
فأين ولا أين السيوف القواطع
فكونوا حصيدا خامدين أو أفزعوا
الى الحرب حتى يدفع الضيم دافع(٢٠)

وفى موقف آخر يصرخ فيهم صرخة مدوية فيقول من قصيدة لامية تعد من عيون شعره نظمها فى أواخر العهد الاسماعيلى لما ساءت الأحوال ، وأثقلت الديون كاهل البلاد ، وجثم المستعمر على صدرها وحبس أنفاسها ، مما أثاره فأرسل قصيدته تلك والتى منها :

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا
شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وقلدوا أمركم شهما أخا ثقه
يكون ردءا لكم فى الحادث الجلل
ماضى البصيرة ، غلاب اذا اشتبهت
مسالك الرأى صاد الباز بالحجل
ان قال بر ، وان ناداه منتصر
لبى وان هم لم يرجع بلا نقل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضا
لكل منتزع سهما ومختتل
ولا تلجوا اذا ما الرأى لاح لكم
ان اللجاجة مدعاة الى الفشل
قد يدرك المرء بالتدبير ما عجزت
عنه الكماة ولم يحمل على بطل

---

(٢٠) الديوان جـ ٢ ص ٢٢١ : ٢٢٢ .
(٢١) الديوان جـ ٣ ص ١٠ .

هيهات ما النصر فى حد الأسنة بل
بقوة الرأى تمضى شـوكة الأسل
ولا تخـافوا نكالا فيه منشـؤكم
فالحوت فى اليم لا يخشى من البلل
عيش الفتى فى فناء الذل منقصـة
والموت فى العز فخر السادة النبل
لا تتركوا الجد أو يبدو اليقين لكم
فالجد مفتاح باب المطلب العضـل
طـورا عراكا ، وأحيـانا مياسرة
رياضـة المهر بين العنف والمهـل
حتى تعود سماء الأمن ضـاحية
ويرفل العدل فى ضاف من الحلل(٢٢)

هـذه الدعوات من البارودى ذهبت أدراج الرياح فلا مجيب ولا سميع ، وكأن القوم قد استمروا الخضوع والاستسلام ، وما كان هذا هو سابق عهـده بهم ، وما كانت هذه أخلاق أسـلافهم الأوائل ، وكأن القوم يغطون فى سبات عميق لذا يصرخ متسائلا :

لم أدر ما حل بالأبطـال من خور
بعد المراس وبالأسـياف من فلل
أضوحت شجرات المجد أم نضبت
عذر الحميـة حتى ليس من رجل
لا يدفعـون يدا عنهـم ولو بلغت
مس العطـافة من جبن ومن خزل
خافوا المنية فاحتـالوا وما علموا
ان المنيـة لا ترتد بالحيـل

(٢٢) الديوان جـ ٣ ص ٢٧ : ٣٢ .

ففيم يتهم الانسان خالقه
وكل نفس لها قيد من الأجل
هيهات يلقى الفتى أمنا يلاذ به
ما لم يخصه نحوه بحرا من الوهل
فما لكم لا تعاف الضيم أنفسكم
ولا تزول غواشيكم من الكسل
فتلك مصر التى أفنى الجلاد بها
لفيف أسلافكم فى عصر الأول
قوم أقروا عماد الحق وامتلكوا
أزمة الخلق من حاف ومنتعل
جثوا ثمار العلا بالبيض واقتطفوا
من بين شوك العوالى زهرة الأمل
فأصبحت مصر تزهو بعد كدرتها
فى يانع من اساكيب الندى خضل
شنوا بها غارة ألقت بروعتها
أمنا يؤلف بين الذئب والحمل
حتى اذا أصبحت فى معقل أشب
يرد عنها يد العادى من الملل
أخنى الزمان على فرسانها فغدت
من بعد منعتها مطروقة السبل
فأى عار جلبتم بالخمول على
ماشاده السيف من فخر على زحل(٢٣)

هذه الأبيات تحمل حمما بركانية ، وتدفع بالشعب دفعا شديدا الى الثورة ، وتهزه هزا عنيفا ولكن هيهات ، ومن ثم فالحال كما قال البارودى،

---

(٢٣) الديوان جـ ٣ ص ١٩ ، ٢٥ .

أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة الى ولبانى الصـــدى وهو طائع

وفى الحقيقة لم يكن الأمر مقصورا على مجرد خضوع هذا الشعب واستســـلامه ، بل ابتلى هذا الشعب بالتبعيـــة للقصر حيث قام أذناب القصر بالتجسس على الأحرار لصالح المســـتبد ، ولذا نجد البارودى يصور حال هؤلاء فيقول :

الى الله أشـــكو اننى بين معشر
ســـواء لديهـــم طيب وخبيث
لهم ألســـن ان رمن أمرا بلغنـــه
من النفس مصـــنوع لهن حديث
ترث على قرب الوداد عهودهم
وكيف يـــدوم الشىء وهـــو رثيث
فليس لهم فى ســـالف الدهر محتد
قـــديم ولا فى المكرمات حـــديث
برمت بهم حتى ســـئمت مـــكانتى
وأنكرت طيب العيش وهـــو دميث
اذا لم يغثنى الله منهم بفضـــــله
فمالى بين العـــالمين مغيث(٢٤)

لذا فانه يحتاط للأمر ويدعو الى كتمان السر يستوى فى هذا العدو والصديق فيقول :

أكتم ضميرك عن عدوك جاهدا
وحذار لا تطلع عليـــه رفيقـــا
فلربما انقلب الصـــديق معاديا
ولربما رجع العدو صديقا(٢٥)

---

(٢٤) الديوان جـ ١ ص ١٤٩ .
(٢٥) الديوان جـ ٢ ص ٣٤٧ : ٣٤٨ .

هكذا كان الناس على عهده لا مبدأ لهم ، وهذا كله جعل البارودى يعيش فى صراع داخلى فلا نفسه راضية بالضيم ، ولا هى راضية عن هذا الشعب المستسلم الذى لم يهب لنداءاته ، أو تحركه صرخاته ، وكأنه راح فى سبات عميق ، أو لم تكن به القوة التى تمكنه من الثورة : على أية حال فان البارودى عمد الى المداراة ريثما تتاح الفرصة فقال :

مداراة الرجال أخف وطئا
على الانسان من حب الفساد
وما كان العداء يخف لولا
أذى السلطان أو خوف المعاد(٢٦)

ولكننا وعلى الرغم من تلكم المداراة نجد البارودى لا يسلم من كيد الكائدين وحقد الشانئين ، وبخاصة عندما اسندت اليه وزارة الحربية والبحرية بعد الثورة العرابية وكيف وشى به الى الخديوى وهذا ما حمله لنا شعره اذ يقول :

نقموا على حميتى فتألبوا
حربا على وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم فلما صادفدا
سمعا يميل الى الملام توسعوا
لا عيب فى سوى حمية ماجد
والسيف يغلبه المضاء فيقطع(٢٧)

وهذه الحال جعلت البارودى يحاول أن ينفض يده من العمل السياسى ، ويدعو الى البعد عن السياسة لما يحف بها من كيد وخديعة ونفاق ومداهنة ، داعيا الى اللهو كبديل عنها فيقول :

---

(٢٦) الديوان جـ ١ ص ٢٨٩ : ٢٩٠ .
(٢٧) الديوان جـ ٢ ص ٢٧ .

فيابن ودى هلم نقتسم اللهو
فنفسى الى الصبا حسرة
وخلنا من سياسة درجت
بين أناس قلوبهم وعرة
يقضون أيامهم على خطر
فبئس عقبى السياسة الخطرة
خديعة لا يزال صاحبها
بين هموم وعيشة كدرة (٢٨)

على أية حال لم يستطع البارودى أن ينقض يده من السياسة ، بل عاش وهو يجاهد على تخليص وطنه من أيدى العابثين ، مصلحا ما أمكنه الاصلاح ، محاولا أن يعيد لهذا الشعب سالف عصره ، ولذا فكثيرا ما تغنى بماضى الأباء وكأنه يجد فى ماضيهم السلوى عن واقعه المرير ، أو كأنه أراد أن يذكر القوم بحال أبائهم ، وما كانوا يتصفون به من شجاعة وعزة ، فمن هذا قصيدته اللامية التى قالها وهو فى حلوان

اذا نامت الأضغان عن وتراتها
فقومى قوم لا ينام لهم ذحل
رجال أولو بأس شديد ونجدة
فقولهم قول وفعلهم فعل
اذا غضبوا ردوا الى الأفق شمسه
وسال بدفاع القنا الحزن والسهل
مساعير حرب لا يخافون ذلة
الا ان تهياب الحروب هو الذل
اذا أطرقوا أبصرت بالقوم خيفة
لاطراقهم أو بينوا ركد الحفل

---

(٢٨) البارودى رائد الشعر الحديث د. ضيف ص ٧٤ .

وان زلت الأقـدام فى درك غاية
تحار بها الألباب كان لها الخصـل
يفيضون بالمعروف فيضا فليس فى
عطـائهم وعد ولا بعـده مطـل
فزرهم تجد معروفهم دانى الجنى
عليك وباب الخـير ليس له قفـل
ترى كل مشـبوب الحمية لم يسر
الى غئـة الا وطـائره يعـلو
بعيد الهـوى لا يغلب الظن رأيه
ولا يتهـادى بين تسراعه المهـل
تصـيح القنا مما يدق صـدورها
طعانا ريشكو فعل ساعده النصل
اذا صال روى السـيف حر غليله
وان قال أورى زنده المنطق الفصل
له بين مجرى القول آيات حـكمة
يدور على آدابهـا الجد والهزل
يلوح عليـه من أبيـه وجده
مخايل ساوى بينها الفرع والأصل
فأثبينا فى ملتقى الخير أمرد
وأمردنا فى كـل معضـلة كهـل
لنا الفضل فيما قد مضى وهو قائم
لدينا وفيما بعد ذاك لنا الفضل(٢٩)

وكذا قصيدته الميمية التى يقول فيها :

---

(٢٩) الديوان جـ ٣ ص ٥٢ : ٥٩ .

فى قائم السيف ان عز الرضا حكم
فالحكم للسيف ان لم تصدع الكلم
تأبى لى الضـــيم نفس حرة ويد
أطاعها المرهفان السيف والقلم
وعزة بعثتهـــا همة شـــهرت
بها على الدهر عضـــبا ليس ينثلم
وفتية كأســـود القـــاب ليس لهم
الا الرماح اذا أحمـــر الوغى أجم
كالبرق ان عزموا،والرعد ان صدموا
والغيث ان رحموا،والسيل انهجموا
ان حاربوا معشرا فى جحفل غلبوا
أو خاصموا فئة فى محفل خصموا
لا يرهبـــون المنـــايا أن تلم بهـــم
كأن لقى المنـــايا عنـــدهم حـــرم
مرغمون حســـان فى مجالسهم
وفى الحـــروب اذا لاقيتهـــم منهم
من كل أزهـــر كالدينـــار غـــرته
يجلو الكريهـــة منـــه كوكب ضرم
لا يركنون الى الدنيـــا وزينتهـــا
اذا هم شـــعروا بالذل أو نقموا
قد حبب الموت كره الضيم فى نفر
لولاهم لم تدم فى العالم النعم(٣٠)

هكذا كان فخره بهؤلاء ، ولو لم يكن به من الولاء لوطنـــه ما فخر

---

(٣٠) الديوان جـ ٣ ص ٥٣٥ : ٥٤٠ .

بهم ، فهو متعصب لبنى جنسه يشيد بمآثرهم ويعلى من قدرهم ، ويريد لهم العزة والكرامة ولأوطانهم الحرية والازدهار .

كذلك نجد أن البارودى قد واكب أحداث عصره ، وقال فى هذه الأحداث أشعارا وأشعارا ولننظر مثلا الى أهم الأحداث فى عصره وهى الثورة العرابية التى كان أحد زعمائها الأفذاذ يقول فيها قصيدته التالية :

كنا نود انقلابا نستريح به
حتى اذا تم ساءتنا مصائره
فالقلب مضطرب فيما يحاوله
والعقل مختبل فيما يحاذره
قد كان فى السلف الماضين نافعة
فصار فى الخلف الباقين ضائره
ما أبعد الخير فى الدنيا لطالبه
وقرب الشر من نفس تحاذره
أكلما مر من دهر أوائله
كرت بمثل أواليه أواخره
ان دام هذا أضاع الرشد كافله
فيما أرى رأطاع الغى زاجره
تنكرت مصر بعد العرف واضطربت
قواعد الملك حتى ريع طائره
فأهمل الأرض جرا الظلم حارثها
واسترجع المال خوف العدم تاجره
واستحكم الهول حتى ما يبيت فتى
فى جوشن الليل الا وهو ساهره
ويلمه سكنا لولا الدفين به
من المآثر ما كنا نجاوره

أرضى به غـير مغبـوط بنعمتـه
وفى سـواه المنى لولا عشـائره
يا نفسى لا تجزعى فالخـير منتظر
وصاحب الصـبر لا تبلى سرائره
لعل بلجة نور يستضـاء بهـا
بعد الظلام الذى عمت دياجره
انى أرى أنفسا ضاقت بما حملت
وسوف يشهر حد السيف شاهره(٣١)

كذا نجد البارودى كان ناصحا أمينا يبدى النصيحة الصادقة حينما تجد أمور فمثلا عنـدما هاجمت سفن الأسـطول الانجليزى مدينـة الاسكندرية وسقطت فى أيديهم هذه المدينة وتقهقر الجيش الى الصالحية فالقصاصين وكان البارودى قائدا لقوات غير نظامية فى هـذه الأثنـاء واستدعى للمشاركة فى معركة القصاصين فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ م فضل الطريق وفاجأه المدر بنيران مدافعه فتخادل جنده وجدوا فى الفرار ولقى الأمرين من الخيانة والجهل والجبن والتخاذل وكان قد نصح وحذر صادقا وأنهم لا قبل لهم بجيش الانجليز غير أنهم لم يستمعوا لنصـحه فشدا لسانه بهذا النغم الحزين الذى مطلعه يقول :

لأى خليـل فى الزمان أرافـق
وأكـثر من لاقيت خب منـافق
بلوت بنى الدنيـا فلم أر صـادقا
فأين لعمرى الأكرمون الأصادق

ومنها قوله :

---

(٣١) الديوان جـ ٢ ص ١٤٢ : ١٤٣ .

معاشر سادوا بالنفاق ومالهم
أصول أظلتها فروع بواسق
فأعلمهم عند الخصومة جاهل
وأنقاهم عند العفافة فاسق
طلاقة وجه تحتها الغيظ كاشر
ونعمة ود بينها الغدر ناعق
دعونى الى الجلى فقمت مبادرا
وانى الى أمثال تلك لسابق
فلما استمر الجد ساقوا حمولهم
الى حيث لم يبلغه حاد وسائق
فلا رحم الله امرءا باع دينه
بدنيا سواه وهو للحق رامق
على أننى حذرتهم غب أمرهم
وأنذرتهم لو كان يفقه مائق
وقلت لهم كفوا عن الشر تغنموا
فللشر يوم لا محالة ماحق
فظنوا بقولى غير ما فى يقينه
على أننى فى كل ما قلت صادق
فتبا لهم من معشر ليس فيهم
رشيد ولا منهم خليل مصادق
ظننت بهم خيرا فأبت بحسرة
لها سخن بين الجوانح لاصق
فياليتنى راجعت حلمى ولم أكن
زعيما وعاقتنى لذاتى العوائق
ويالليتنى أصبحت فى رأس شاهق
ولم أر ما آلت اليه الوثائق

هم عرضـــونى للقنا ثم أعرضـــوا
سراعا ولم يطرق من الشر طـــارق
وقد أقسموا ألا يزالوا فمـــا بدا
سنا الفجر الا والنســـاء طـــوالق
فكم آبق تلقـــاه من غير طـــارد
وكم واقف تلقـــاه والعقـــل آبق
اذا أبصروا شخصا يقولون جحفل
وجبن الفتى سيف لعينيـــه بارق
اسود لدى الأبيات بين نســـائهم
ولكنهم عند الهياج نقائق(٣٢)

هذه الأبيات تحكى مدى المعاناة النفسية لدى البارودى ، وكم كان وقع الصدمة شديدا على نفسه ولذا صورهم أقبح تصـــوير وهجاهم أمر هجـــاء .

كذا نجده يقدم نصحه اولى الأمر ، ويصوغه شعرا ربما قدمه فى صورة مدح له وهو فى واقع أمره يريد النصح ويشير الى فضائل هامة يجب على الحاكم أن يتحلى بها ، من هذا قوله مهنئـــا توفيق بملك مصر سنة ١٨٧٩م ، ١٢٩٧هـ ويذكره بما وعد به من انشاء مجلس نيابى وكان البارودى آنذاك وزيرا للمعارف والأوقاف :

سن المشـــورة وهى أكرم خطـــة
يجرى عليهـــا كل راع مرشـــد
هى عصمة الدين التى أوحى بهـــا
رب العباد الى النبى محمـــد

---

(٣٢) الديوان ج ٢ ص ٣٤٠ : ٣٤٤ .

فمن استعان بها تأيد ملكه
ومن استهان بأمرها لم يرشد
أمران ما اجتمعا لقائد أمة
الا جنى بهما ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم
شورى وجند للعدو يمرصد
هيهات يحيى الملك دون مشورة
ويعز ركن المجد ما لم يعمد
فالسيف لا يمضى بدون روية
والرأى لا يمضى بغير مهند
ولأنت أول من أفاد بصولة
حرية الأخلاق بعد تعبد
أطلقت كل مقيد وحللت كل
معقد وجمعت كل مبدد
وتمتعت بالعدل منك رغبة
كانت غرسة كل باغ معتد(٣٣)
فاعكف على الشورى تجد فى طيها
من بينات الحكم ما لم يوجد

هكذا كانت قصيدة التهنئة (وهى فى الظاهر تحية وتهنئة ، وفى الحقيقة دعوة صريحة لتوفيق وأوزاره ، وصاغ ذلك صياغة تدل على أنه أصبح أمرا مقضيا لا مفر منه)(٣٤) ، ولذا نجده يتحدث عن صفات ثابتة ظهرت أثارها فحكم بها عليه والحال أنه قالها فى مبدأ ولايته بل فى أيامها الأولى فهو يتحدث عن الخديوى بصفات صيغت بلغة الماضى

---

(٣٣) الديوان جـ ١ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .
(٣٤) البارودى د. ضيف جـ ١ ص ٧٠ .

فهذا تلميح له بفضلها وأن تكون منهجه فى سنين حكمه المقبلة • وفى موقف آخر يطلق نصيحة عامة لكل حاكم فيقول :

اذا سدت فى معشر فاتبع
سبيل الرشاد وكن مخلصا
ووال الكريم ودار السفيه
وصل من أطاع وحذ من عصى
ونقب لتعلم غيب الأمور
فان من الحزم أن تفحصا
ولا تبقين على فاجر
فان اللئام عبيد العصا
وان خفى الحق فاصبر له
وبادر اليه اذا حصحصا
وأخلص لربك فى كل ما
نويت تجد عنده مخلصا(٣٥)
فما الدهر الا خيال سرى
وظل اذا ما سجا قلصا

كذلك تجلت وطنيته فى شوقه العارم الى وطنه عندما نفى الى جزيرة سرنديب اثر اخفاق الثورة العرابية ففى هذا المنفى السحيق قال أجور أشعاره حنينا الى وطنه وشوقا اليه ومن هذا قصيدته السلامية التى يستهلها بقوله :

ردوا على الصبا من عصرى الخالى
وهل يعود سواد اللمة البالى
ماض من العيش ما لاحت مخايله
فى صفحة الفكر الا هاج بلبالى

---

(٣٥) الديوان جـ ٢ ص ١٨٦ ، ١٨٧ •

سلت قلوب فقرت فى مضـــاجعها
بعد الحنين وقلبى ليس بالســـالى
لم يـــدر من بات مسرورا بلـــذته
أنى بنار الهوى من هجره صالى(٣٦)

ويستمر فى قصيدته تلك التى تزيد عن الأربعين بيتا يشـــدو فيها بحـ ب الوطن ويصور وقع الغربة على نفسه وقد نفثها وهو فى بداية نفيه حيث نظمها ما بين اعمى ٨٣ ، ١٨٨٤م (فبلغ بها الغاية فى صدق العاطفة وجمال الموسيقى وروعة التصوير وبلاغة التعبير وحسن الســبك وقوة التأثير وأخرجها من أعماق قلبه لتحتل قلوب الناس)(٣٧) .

ويشتد به الحنين الى وطنه الذى نفى فى ســبيله فيهتف متمنيـــا نسماته يطفىء بها نار الفراق أو جرعة من ماء نيله يروى بها غلة البعاد فيقول :

يا حبـــذا جـــرعة من ماء محنيـــة
وضجعة فوق برد الرمل بالقـــاع
ونســـمة كشميم الخلد قد حملت
ريا الأزاهـــير من ميث وأجـــراع
يا هل أرانى بذاك الحى مجتمعـــا
بأهـــل ودى من قومى وأشـــياعى
وهل اشـــوق جوادى للطراد الى
صـــيد الجـــآذر فى خضراء ممراع
لا فى سرنديب خل اســـتعين به
على الهموم اذا هاجت ولا راعى

---

(٣٦) انظر الديوان جـ ٣ ص ٩٣ : ١١٢ .
(٣٧) الديوان جـ ٣ ص ١١٦ .

يظننى من رآنى ضـــاحكا جذلا
انى خلى وهمى بين أضـــلاعى
ولا وربك ما وجدى بمنـــدرس
على البعاد ولا صـــبرى بمطواع
لكننى مالك حزمى ومشـــطر
أمرا من الله يشـــفى برح أوجـــاعى
فان يكن ســـاءنى دهرى وغادرنى
رهن الأسى بين جدب بعد امراع
فان فى مصر اخـــوانا يسرهم
قربى ويعجبهم نظمى وابداعى(٣٨)

هذه الأبيات تعد نفثة مكلوم يتحرق شوقا الى وطنه مصر (وواضح أنه عبر عن شوقه الى وطنه وأرضه ومياهه ورياضـــه بصـــورة بدوية محضة فى البداوة فهو يتمنى جرعة من بئر فى منعطف واد ، وضجعة على برد الرمل بالقاع ، ونســـمة محملة بشذى الأزاهير المنبعثـــة فى الميث والأراع)(٣٩) • وكيف أنه يتســـلى بذكر مصر وان له فيهـــا اخـــوانا صـــادقين •

وله غير ما مر عدة قصائد كلها شوق الى مصر وتمنى العودة اليها منها قصيدته القافية ومطلعها :

هل من طبيب لداء الحب أوراقى يشفى عليلا أخا حزن وايراق(٤٠)

وقصيدته البائية ومطلعها :

لكل دمع جرى من مقلة ســـبب وكيف يملك دمع العين مكتئب(٤١)

---

(٣٨) الديوان جـ ٢ ص ٢٦٩ : ٢٧٠ •
(٣٩) البارودى شاعر العصر الحديث د• ضيف ط رابعة ص ١٤٤
(٤٠،٤١،٤٢،٤٣) الديوان جـ ١ ص ١١٠ ، ٢٥٣ ، جـ ٢ ص ٩٥ : ٢٣٠ •

وقصيدته الدالية ومطلعها :

أبيت عليلا فى سرنديب ساهرا أعالج ما ألقاه من لوعتى وحدى(٤٢)

وقصيدته الرائية ومطلعها :

تأوب طيف من سميزة زائر وما الطيف الا ما تريه الخواطر(٤٣)

هكذا كان حب الشاعر لوطنه وتلك منزلة الوطن فى نفسه وان (حبه لوطنه ظل معينه الذى لا ينضب فى نفسه بل لقد سلك به سبيلا من الحنين الى الوطن لم يعرف لشاعر من قبله)(٤٤) ، فقد كان لا يطيق البعد عنه ، فهو به يعيش ومن أجله ضحى ، وفى سبيله لقى النفى والتشريد سبعة عشر عاما ، متحملا كل آلام الغربة بنفس راضية وهمة قوية ، لم تكن له من جريمة سوى وطنيته ، ومتى كان حب الوطن جريمة يقول فى هذا المعنى :

لم أقترف زلة تقضى على بما
أصبحت فيه فماذا الويل والحرب
فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى
ذنب أدان به ظلما واغترب
فلا يظن بى الحساد مندمة
فاننى صابر فى الله محتسب
أثريت مجدا فلم أعبأ بما سلبت
أيدى الحوادث منى فهو مكتسب(٤٥)

لذا فكم كان سعيدا عند التلاقى بعد هذا الزمن الطويل ، ومن ثم فعندما سمح للبارودى بالعودة الى مصر لم تكد أقدامه تطأ تراب الوطن

---

(٤٤) البارودى د. ضيف ص ١٢٢ .
(٤٥) الديوان جـ ١ ص ١١٠ .

حتى هتف بهذه الرائية الخالدة (فكانت أنشودة العودة التى تغنى بها الناس وبخاصة أهل العلم والفكر والأدب فى مصر وسائر البلاد العربية)(٤٦) ومطلعها :

أبابل رأى الصين أم هذه مصر
فانى أرى فيها عيوناهما السحر
نواعس أيقظن الهوى بلواحظ
تدين لها بالفتكة البيض والسحر
فليس لعقل دون سلطانها حمى
ولا لفؤاد دون غشيانها ستر(٤٧)

واستمر فى قصيدته تلك متغزلا بمصر فرحا باللقاء وأقام بها بعد عودته من منفاه سنة ١٩٠٠م أربع سنوات حتى أذن الله له بالرحيل الذى لا عودة له فتحتضنه الأم فى بطنها الى الأبد .

(٤٦، ٤٧) الديوان جـ ٢ ص ١٤٤ : ١٤٧ .